

بلقب بك أو باشا وفي الكتب أمور حرية بالتدبر فكان كاتبه مغرم بإظهار فكره في شأن البلاد التي دخلها والمعاهد التي زارها وقد حمد مقامه في فلسطين في أديار الفرنسيكان ووصفهم بالطبع أجمل وصف.

حياة بابل

ذكرت بعض الصحف العلية أن التوراة ترجع تاريخ بابل إلى أكثر من سبعة وثلاثين قرناً قبل المسيح وكانت على عهد ملكها العظيم يختصر أي قبل الميلاد بستة قرون عاصمة العالم بأجمعه وسكانها خمسة وعشرين مليوناً وهي من الارتقاء على جانب عظيم جداً وموقع بابل على الفرات وقد اشتق اسمها حديقة الحدائق من خصبها وأمرائها. دمرها الفرس على عهد قورش وخلفائه وتركوها أنقاضاً ينعق فيها غراب الدمار وما هي اليوم منذ أكثر من ألفي سنة عبارة عن قفر يجيء بعض العلماء فيتطوقون آثاره ويتعرفون أخباره.

وسكان هذا المكان الذي طالما بكى في أرجائه أبناء صهيون الإسرائيليون هم أناس من العرب الرحالة ولكن ذلك لم يطمس من ذكرى حضارتها معلماً فقد ذكر هيرودوتس المؤرخ أن بابل أخصب البلاد بمخضتها تأتي حبتها مئة وزيادة يد أن العلم الحديث حل هذا المصمى في خصب بلاد تلك الأصقاع وهو أنه كانت تروى كلها فلول قنات لها خزانات وسدود كما كان لها على عهد سعادتها كما قناتاً لمصر خزان أسوان فروى النيل عشرات الألوف من الأفدنة التي كانت محرومة من السقيا لعاد إلى بابل خصبها المدحش وأتت السنبلة مئة سنبلة وزيادة.

ولقد وقع في ذهن الإسكندر الكبير في آخر عهده أن يعيد إلى ذلك الصقع بماء القديم فأنشأ ترعتي بالأكوبوس والنهروان وطول الواحدة ٤٨٠ كيلومتراً وطول الثانية ٢٥٦ كيلومتراً ليحب مياه دجلة إلى داخل المدينة إلا أن أخلافه غفلوا عما

بدأ بعمله فعادت البلاد باهتة خربة وهان السير ويليام ويلكوكس الإنكليزي قام في ذهنه منذ سنين أن يعيد ما كان بدأ به الإسكندر المقدوني فوضع مشروعاً في الري على صورة أوفيق من المشروع القديم وهو يكلف ٧٥٠ مليون فرنك ويقسم تلك البقعة إلى ست مناطق تحيا الأولى بعد الثانية وكل ما تم لإحداها أمر سقيها تقوم بنفقات ما صرفته على أعمال الري فيها وبذلك تحيا الراضي الواقعة على شاطئ دجلة والفرات فالبذار يزرع في الخريف فترويه الأمطار حتى إذا جاء آذار ونيسان وفاض الرافدان دجلة والفرات تسقى تلك الأراضي تياههما الصيف كله فهل تتحقق يا ترى هذه الأحلام ويعود لبابل عزها في سالف الأيام أم يبقى أثر ري العراق في عالم الخيال أو كلاماً في كلام.

خمر الشام

اكتشف بالقرب من مدينة بورردو الفرنسية ناووس من القرن الأول للميلاد وشوهدت على مقربة من هيكل العظام رجاجة مستطيلة وشكلها يخالف شكل الزجاج المعمول في بلاد غالبا وقد حلل العلماء ما فيها فأود خمراً واستدل الباحثون أن هذا الخمر من صنع سورية إذ كانت خمراً تحمل إلى جنوبي فرنسا كثيراً ويستطيعها الناس كل الاستطابة وذلك بفضل ما كان من الصلات التجارية المستحكمة القديمة بين بلاد الشام وفرنسا.

المدنية

كتب أحد علماء فرنسا في المجلة الباريزية مقال تحت عنوان هل المنية في ارتقاء أو انحطاط قال فيها: إن الناظرين إلى المدنية فريقان فريق يرى ما فيها من العظمة والمنافع المادية التي سخرها الإنسان لأمره وآخر يذهب إلى أن الارتقاء على عمومته لا يتأتى له إلا أن يسير على الدوام سيراً سريعاً. ويرى هذا الفريق الأخير أن كل شيء ينمو

من حسن إلى أحسن وأن البشر يبذلون الجهد للوصول إلى هذه الغاية النافعة ويقولون أن العالم ارتقى في مدارج النشوء والنمو حتى صار الإنسان إلى ما صار إليه فورث قوى عاملة وما نشوء نظام الكون إلا نشوء العقل البشري والانقلابات الشديدة تحت اضطراباً مؤقتاً ولكن ينشأ عنها ما يعث الكفاءات من مرقدها ويضم القوى المعثرة ويحملها على أن تتجه وجهة جديدة يستقيم جريها وبالإجمال فالمدينة لا تعود القهقري ولا تقف في مركز واحد بل هي سائرة على الدوام بيد أن التاريخ علمنا أن الأعالي تسفل والاستعداد يزول وفكر العظمة والانحطاط متلازمان تلازم الجبال والأودية والليل والنهر والشباب والمهرم والحياة والموت.

إنه من المعذر الوقوف فيما الارتقاء متواصل أو سقوط تام وبقدر الصعود يكون النزول فالولد الذي يكذب مرة يقوى في المرة الثانية أكثر على التفود بالأكاذيب فتضعفه أخلاقه على تلك النسبة ويعود ويرتكب أفطع من ذلك وكذلك الحال في الاجتماعات فإن من يغوي فتاة يغوي فتى وهذان يغويان آخرين ومن تسومح في عقابه من مجرمين يعود فيث دعوته في العقول ويكثر سواد أصحابه فيكثر في المجتمع الفاسدون.

الرجل المتحضر لا يقابل الرجل المتوحش أي الذي يعيش وحده بعيداً عن المجتمع نعم إن المدينة لا أثر لها إذا فقدت الصلات الاجتماعية ولكن الحياة الاجتماعية تستلزم عادات كثيرة وأشكالاً متنوعة من الحياة وأساليب متنوعة الصفات والحالات فقد قال اللغويون أن اللغويون أن المدينة هي مجموعة آراء وأخلاق تنشأ من الحمل المتبادل في الصناعات والديانات والفنون النيسة والعلوم. وزاد بعضهم على هذا التعريف ما يلحق ذلك من المناحي العديدة في الصلات الاجتماعية كتبادل المحاصيل وتبادل العواطف والأفكار. بل أن هذا التحديد لا يشعر بأن المدينة كذا كاملة قرب شعب

ذي مدينة ولكنها جميلة أو قبيحة رائقة أو غير رائقة إنسانية أو ظالمة على نحو ما يكون للمراء خلق حسن أو رديء فالصناعات قد تكون جميلة أو رديئة والأديان سليمة أو خرافية والعلوم نافعة أو ضارة.

كل شيء يرتقي مع هذه المدينة في ماكلها ومشاربها وملابسها وسائر حالاتها وما ننس لا ننس أن ألفاً وستمائة شخص غرقوا في باخرة واحدة (تيتانيك) وكان منهم من دفع ٢٢٠٠٠ فرنك أجرة سفرة خمسة أيام ونصف يوم ليركب في حال من الكبر والتفخل ليس بعدما غاية. إن الحرص على هذه المدينة هو الذي أورت أمراضاً وهموماً وأفقد العالم الحياة الطبيعية فكثرت الأمراض العصبية وداء المفاصل والبول السكري وضعف المخموغ العصبي بل لقد كثر الجنون حتى أكد أحد العارفين من أطباء الإنكليز وقد هاله تكاثر عدد المختل شعورهم من أمتة في العهد الأخير أن إنكلترا سيعادل عقلاؤها مجانيها بعد ثلثمائة سنة.

إن المدينة أتت على الكثير من محسنات الطبيعة وعادات الأجداد الفاضلة فانتزعت من النفوس وفي هذه الحركة الاجتماعية يقول بعضهم كلما كثر عدد الناهضين يزيد عدد الساقطين. لا جرم أن التجارة ولما لم توجد لما عرف الإفلاس ولو لم تنشأ السكة الحديدية لما وقعت هذه الرقائع المزعجة في المصادمات وغيرها ولكن الشعب الأعرق في المدينة هو الذي يقلل من الإفلاس بين التجار وبين المصادمات في الخطوط الحديدية بدون أن يوقف حركة التجارة ولا حركة القطارات بل يفعل ما بينهما ويجعل أعمالهما في مأمن. ومثل ذلك يقال في كل شيء. يقال في التعليم والصحافة وحقوق الانتخاب والمضاربات والأدب والصناعة بل ينطبق على كل ما في حركة المدينة من قسح وزوان ونظام خلل وجرأة وجبن. إن تغلب الأجسام على العقول هو الخطاط في

المدنية. إن ضعف نظام الأسرة وروابطها واحتقار الخيار والتنصل من التبعات والزهد في التقاليد والخلاص من كل شكيمة ووازع هو دليل انحطاط المدنية.

إننا إلى نظرنا إلى المتمدنين وهم الأقلية في العالم نراهم فيلا معاملة المتوحشين هم دونهم على ثلاثة ضروب فمنهم من يعاملون من هو الأخط منهم باستثمارهم ومنهم باستعمارهم ومنهم بتمدينهم وهم قلائل جداً فالمدتمرون يبحثون عن مورد ثروة عند الأمم التي يبيعونها مصنوعاتهم والمعمرون يقنون عن زيادة ثروة ونفوذ بأن يحملوا بالتدريج الأمم لمفردة على الاشتراك بالحياة الاقتصادية والتشبه بالنازلين عليهم وهؤلاء يدوم لهم استعمار الأرض طويلاً بالنسبة لغيرهم. أما الساعون في تدوين أمة فهم الذين يلقونها معنى الحياة السامية والعمل لما فيه نشر الفضائل والسلام في الأسر وبث الوطنية والدين على نحو ما كانت تعمل الأمم القديمة في أيام عزها.

ولقد قيل أن فرنسا لم تحسن استثمار من وضعت أيديهم عليهم من الأمم وهذا مما يدعوا إلى مدحها لا إلى القدح فيها وذلك لأن فرنسا ليست من الطمع على جانب عظيم غيرها وهي رحيمة بمن تغلبهم على أمرهم. ويقولون أيضاً أنها لا تحسن الاستعمار وفي هذا الكلام شيء من الحق وذلك لأن أولادها ليسوا كثيراً فلا تطيع أن تبعث إلى القاصية منهم بمن يستحقون اسم المستعمرين الحقيقيين وإنما في البلاد التي أرسلت عليها أبناءها كما هو الحال في الجزائر وتونس قد عملت والثقة ملء صدرها ما تطيع أن تري أعدائها وأحبائها النقاط الضعيفة منه وهم لا ينكر على لغتنا أنها كانت ولا تزال في مقدمة من يحمل علم المدنية والتمدين وذلك لأن أبائنا يستهينون بالأتعاب ويذلون قلوبهم وحياتهم لنشر ما يعتقدونه. إن مستعمرينا يعلمون من يعمروهم الذوق على العمل واحترام المرأة والبعد عن المكرات (؟) ومرسلينا يعلمون السود والصرغ تعاليم التوراة يضاف إليها تلقينهم الاعتدال

والفضائل البتة ومثال الإحسان لأنهم يجمعون أيتامهم ويعنون بمرضاهم ويلقنون معنى التوفر على الزراعة وتربية الحيوانات والبناء ويمهدون السيل للعاملين. فالمدنية إذا لم تكن أبداً فإن لها بانتشارها على هذه الصورة المقام الأول بين وسائطنا في الحضارة فإن من لا يمدن بعمر استعماراً رديناً ومن لا يعمر لا يأمن أن تكون له قدرة على الاستثمار طويلاً وبالجملة فإن كل أمة لا تحتفظ بسلسلة المراتب في طريق العمل والنموذ على أساليبها الثلاثة بل إن لكل أمة تلقي الاضطراب في ذلك تدخل عليها جرائم من الانحطاط تنمو اليوم بعد اليوم.

ما قد انقضى الزمن الذي كان يعتقد فيه المعتقدون أن لا سبيل إلى الكعب من شعب إلا بإفقاره للمنافسة بين المعطي والآخذ وهذه القاعدة منافية للحقيقة لأن من يفقر رعاياه والتابعين له ومستعمره بل وجيرانه يفتقر هو أيضاً وما يعني التاجر في المقايضات يعني المقاضين في المدن والاسعمار الذي يذل البعض يفسد الآخرين وكلاهما يتأثران منه. شعرت بذلك الممالك الكبرى في القديم وكذلك كان الحال في إسبانيا والبرتغال: نعم إننا نعرف اليوم كيف تضاعف المقايضات والتجارات ولا نطلب أكثر من أن نرى الزنوج يغلبون من نبات المطاط لنريح منه ما نبتاع به قطناً كثيراً وأدوات نشغلها. لا نطلب أكثر من أن نرى شواطئ دجلة والفرات وقد أصبحت من الخصب بما تستطيع معه أن توصل في بلادنا على خطوط حديدية وقاطرات. ويا ليت شعري هل يجد أولئك الشعوب أسباباً تمكنهم من بناء عاصمة كابل التي كان محيطها المسور يستغرق محيط مدينة باريز وسان ديني وسان جرمان وإذا وفقوا لذلك حفظها زمناً من الانحطاط كما احتفظ بها أسلافهم. إن أول قدم يخطوها السائر نحو المدنية هو إصلاح الأسرة وإعداد طبقة مختارة من الأمة وتكثير

عددها وتجديد أعمالها وما السلام إلا في البيوت والمدن والمعابد وعند الأمم ومتى أثبتت الأفعال أننا بلغنا الغاية فيها يتيسر لنا أن نقول أن من ينشأ في ارتقاء.

جراثيم البيض

يقول العارقون أن البيض النظيف عقيم لا ينقف وأن البكتريا لا تدخل إلا في البيض المشقوق أو المكسور الذي تكون قشرته ملوثة بالأوساخ ممسوسة بالأيدي وبتفح البيضة يدخلها الهواء وقد تدخله الجراثيم الضارة فالأجدر بربات المنازل أن تتحامي استعمال البيض المكسر ولو كانت طرية لأن من استعمالها قد تنشأ مضار ولا يخشى البيض إذا كان خارجة سليماً من الوسخ والماء الغالي. فالبيضة التي تزكّل نصف مسلوقة على الصورة المذكورة لا يخشى من تناولها.

نبات السود

خاضت المجالات العلمية بالنبات البديع الذي يكثر في النيل الأزرق والنيل البيض ويسمى السود ولم يعرف أحد يحسن الانتفاع من هذا النبات حتى الآن حتى قام عالمان ألمانيان وأثبتا أنه ينفع للوقود بدل الفحم وذلك بأن يقصّل ويجمع كالكش حزماً ويحمل في النيل ولا يلبث أن ينشف ويقطع ثم كل طن ثمانية وعشرين فرنكاً في حين تباع مثل هذه الكمية من الفحم بمائة وأربع فرنكات ويرجي باستنبات هذا النبات والاستكثار منه أن يكون ثمة أرخص من ذلك وقد أنشئ في الخرطوم عاصمة السودان أول معمل لإحضار هذا النبات الذي يخدم الصناعة خدماً كثيرة.

أضخم الكتب

قالت المجلة تملك المكتبة الملكية في استوكهلم كتاباً مخطوطاً عرف باسم توراة الشيطان ويدعى أيضاً مارد الكتب بسبب حجمه العظيم فإن طوله ٩٠ سنتيمتراً وعرضه ٥٠ ويقتضي ثلاثة رجال لحمله ويحتوي على ٣٩٠ صفحات ينقصها ٧